الدلالات الإصلاحية للتقابل والتفاعل بين خصائص النفس البشرية وكليات الدين الضرورية*

أ.د.محمد الحسن بريمة إبراهيم**

المستخلص

يدعو هذا البحث إلى أن تقوم الأمة الإسلامية بثلاثة إصلاحات ضرورية حتى يستقيم أمرها وينصلح حالها، وهي: الإصلاح المعرفي في مجال العلوم الكونية؛ الإصلاح التربوي لتفجير طاقات الإيمان القلبية؛ الإصلاح الإرادي لتحقيق العمل الصالح المبدع في مجال العمارة الأرضية. هذه الإصلاحات الثلاثة تتأسس على التقابل والتفاعل بين الخواص الثلاث للنفس البشرية(العقلية، الوجدانية، الإرادية)، والكليات الثلاث الضرورية لدين الإسلام(العلم، الإيمان، العمل الصالح). يبين البحث الأهمية الخاصة للقلب بمفهومه القرآني في هذه الإصلاحات الثلاثة، ويدعو إلى ضرورة إعادة اهتمام الأمة به كما كان في زاهر الحضارة الإسلامية.

ميّز البحث بين الاستخدام القرآني لكلمة "شريعة" التي تعني "الدين المشروع وحيا"، وهي "شرعة"، أي مقاصد، و"منهاج"، أي وسائل، وبين الاستخدام الاصطلاحي لكلمة "شريعة" عند الفقهاء والتي تعني "الأحكام التكليفية العملية"، وهي بهذا تقتصر على "المنهاج" دون "الشرعة". بيّن البحث خطورة هذه المفارقة في الدلالة المفاهيمية على الأمة الإسلامية، وعلى أي مشروع إسلامي معاصر، فبينما يدعو القرآن الكريم إلى "إقامة الدين" في الواقع الاجتماعي باتباع "الشريعة" بمفهومها القرآني يدعوا الفقهاء في هذا الزمان إلى تطبيق الشريعة بمعناها الاصطلاحي الذي يقتصر على الوسائل دون مقاصدها. المقاصد حاكمة ومحددة لوسائل تحقيقها، بشروط الزمان والمكان، وأهم تلك الوسائل هو "الفعل الاجتماعي" الذي تعتبر "الأحكام الشرعية" الضابط المعياري له، والفقه المؤسس على تلك الأحكام هو زاوية واحدة من زوايا النظر العلمي إلي الفعل الاجتماعي، ومن ثم فهناك علوم كونية أخرى، اجتماعية وطبيعية، ضرورية لإقامة الدين وتحقيق مقاصده في الحياة.

يؤكد البحث أن علوم الأمة التي تحتاجها لإقامة الدين في الحياة، سواء كان مصدرها الوحي، أو الكون، هي علوم كونية تجريبية، سواء كانت في مجال الظاهرة الطبيعية، أو الاجتماعية، وأن العلوم القيمية الإسلامية، بما في ذلك علم الفقه وعلم التزكية، هي أيضا علوم كونية تجريبية. تم التأكيد على أهمية الوحي كمصدر للعلم الكوني وفلسفته، باعتبار أن العلم التوحيدي هو ذلك الذي يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض.

ختم البحث بخمس توصيات هي: أولا؛ إعادة النظر في فهمنا لحقيقة ديننا، والأبعاد الزمانية والمكانية التي يتحقق فيها الاستخلاف التوحيدي، ومن ثم المنهج المناسب لإقامة الدين في الحياة، بشروط الزمان والمكان. ثانيا؛ إعادة ترتيب الأولويات العلمية والتعليمية والتربوية، وربط المناهج الدراسية بالنظر الكوني القرآني كفلسفة للعلم، ودعم المؤسسات التعليمية بالمراصد وتكنولوجيا العلوم الكونية، وبث ثقافة العلم الكوني في المجتمع. ثالثا؛ تهيئة الأمة الإسلامية للتطلع إلى اللحاق بركب السابقين إلى الفضاء الكوني للقيام بواجب الاستخلاف التوحيدي في الأرض جميعا. رابعا؛ إن العلم والتقنية العظيمة التي سوف يمتلكها من يستطيعون الوصول إلى أقطار السماوات والأرض، وكذلك الموارد الفضائية التي سوف تكون تحت تصرفهم تجعلهم قادرين، من مكان بعيد، على فعل ما يشاؤون بمن أخلد إلى هذه الأرض التي نحن فيها الآن. ولما كان من يكنّون العداء للإسلام والمسلمين هم المبادرون الآن إلى الفضاء فإن مصائب عظيمة تنتظر الأمة الإسلامية إن هي ظلت مع القاعدين. خامسا؛ لابد من إعادة النظر الجدّي في حقيقة علوم الدين، فكل علم ضروري لإقامة الدين فهو علم شرعي.

---

* كنت قد سميت هذا البحث من قبل ب"نحو ثورات ثلاث"، ولكني قبلت نقد الدكتور محمد مجذوب محمد صالح لهذه التسمية، كما قبلت اقتراحه باستبدال مفهوم "الإصلاح" بمفهوم "الثورة" فله الشكر على هذا التوفيق.

** معهد إسلام المعرفة/ جامعة الجزيرة/ السودان

1- التقابل والتفاعل بين خصائص النفس البشرية وكليات الدين الضرورية

الإنسان الذي استخلفه الله تعالى في الأرض تتمحور طبيعته النفسية حول ثلاث خواص: الخاصية العقلية؛ الخاصية الوجدانية؛ الخاصية الإرادية. الخاصية العقلية معنية في الأساس بتمكين الإنسان من تكوين تصورات موضوعية للكون،

أي من تكوين "رؤية علمية للعالم" تمكنه من التعرّف على هذا الكون الذي هو جزء منه، وإن كان الغالب أن تجنح "رؤية العالم" إلى الذاتية حيث يُغيّب العلم وتتمكّن الأهواء. أما الخاصية الوجدانية فهي التي يعتمد عليها الإنسان في تحويل رؤية العالم العقلية الموضوعية إلى رؤية ذاتية للحياة، حيث يبني كل إنسان تفضيلاته القيمية المنبثقة عن ثقافته الاجتماعية التي تشكلت بدورها من رؤية العالم الجمعية. وهذه الرؤية الحياتية هي التي من خلالها يتعامل كل إنسان مع الحياة، ويتأسس عليها عمله، وتمثل بصمة خاصة به تعبر عن شخصيته المتفردة، رغم أنها تتأسس على قواسم مشتركة مع آخرين بحيث تسمح بإقامة مجتمع يضم أولئك الذين يتشاركون رؤية العالم المعنية. الخاصية الثالثة، وهي الإرادية، معنية بتمكين الإنسان من تحويل رؤيته الحياتية إلى مقاصد ودوافع ونوايا تترجم إلى أفعال إرادية في إطار اجتماعي تمكنه من تدبير أمر حياته ومعاشه.

إن دين الإسلام يقوم على كليات ثلاث، وهي متفاعلة ومتكاملة؛ الكلية الأولى هي العلم التوحيدي:(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))(محمد)؛ (لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)□ (النساء)؛ □وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)(سبأ)؛ (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36))(الإسراء)، ونطلق علي هذه الكلية تجاوزا (عمارة العقل). والعلم التوحيدي الذي نقصده نعرّفه، إلى حين، تعريفا وظيفيا بأنه ذلك الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب، والعمل الصالح في الأرض. هذه الكلية تحتوي على جميع العلوم الضرورية لإقامة الدين في الواقع، في الزمان والمكان.

الكلية الثانية المتولدة عن الكلية الأولى هي الإيمان بالله تعالى بشعابه: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)(الروم)؛ (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)) (الحجرات)، ونطلق عليها تجاوزا أيضا (عمارة القلب). وتضم هذه الكلية جميع شعاب الإيمان باستثناء العمل الصالح الذي يشكل الكلية الثالثة.

الكلية الثالثة، المتولدة عن تفاعل الكليتين السابقتين لها، هي العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا (المال والبنون)، وهو(عمارة الأرض): (وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)) (العصر)؛ (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61))(هود)؛ (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7)(الكهف)؛ (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (46))(الكهف). وتضم هذه الكلية جميع أنواع العمل الصالح اللازم لعمارة الأرض، في الزمان والمكان.

ولا علم توحيدي إلا بالوحي، ولا إيمان بالله تعالى إلا بعلم توحيدي، ولا عمل صالح إلا بعلم توحيدي وإيمان بالله تعالى، ولا نفع لنفس في علم ولا إيمان حتى تعمل بهما. هذه العلاقة التفاعلية الثلاثية الأبعاد تؤدي استدامتها إلى نمو مستدام في كل من العلم، الإيمان، النفس، والعمل الصالح في زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، مما يؤدي إلى حفظ صلاح الأرض، واستدامة هذا الصلاح على مستوى البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية. لذلك كان الإيمان؛ النفس؛ العلم؛ المال؛ البنون؛ ومجتمع التوحيد الناجم عن التفاعل بينها (الدين) هي الأصول الكلية لمقاصد الشريعة الإسلامية، على المستوى الفردي الجزئي، وعلى المستوى الكلي الاجتماعي، وهي أيضا الأصول الكلية لمجتمع التوحيد.

يجب أن نلاحظ أن هذه الكليات الثلاث لدين الإسلام تقابل تماماً الخصائص الثلاث لتركيبة النفس البشرية المذكورة آنفا بحيث يصبح الدين من خلال تفاعل العلم التوحيدي مع الخاصية العقلية للنفس رؤية علمية موضوعية للعالم يتحقق بسببها الإيمان، الذي بدوره يتفاعل مع الخاصية الوجدانية للنفس بحيث يتمكن الإنسان من التحقق برؤية وجدانية تقويمية توحيدية للحياة. ويتفاعل محور العمل الصالح مع الخاصية الإرادية للنفس ليتحقق العمران الاستخلافي للأرض.

---

[1] نعرّف "رؤية العالم" بأنها: "مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة".

الشكل التالي يلخص العلاقة بين التركيبة النفسية للإنسان في أبعادها الثلاثة، وبين الدين بكلياته الثلاث، والإصلاحات الثلاثة التي لابد منها إن أردنا للأمة الإسلامية أن تتقدم بالإسلام، وأن تكون شاهدة على غيرها من الناس.

العمران التوحيدي

المحاور الأساسية لدين التوحيد

1/ العلم التوحيدي(عمارة العقل)

2/ الإيمان بالله تعالى(عمارة القلب)

3/ العمل الصالح(عمارة الأرض)

التركيبة النفسية للإنسان

1/ العقل ⟵ إدراك حقائق الوجود

2/ الوجدان ⟵ تقييم حقائق الوجود

3/ الإرادة ⟵ تحقيق الفعل الإرادي في الوجود

2- النتائج الإصلاحية للتقابل والتفاعل بين خصائص النفس وكليات الدين

الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلى ثلاثة إصلاحات كبرى لكي يتحقق لها الانتقال من رؤية العالم الدنيوية الغربية ونظامها المعرفي الوضعي، المهيمنان على كل أوجه حياتها، والحاكمان عليها بتبعية مُذلّة، إلى رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي حتى تتمكن من النهوض والمشاركة في المنجزات الحضارية للبشرية وترشيدها، ثم الريادة والشهادة المستحقة لها. الإصلاح الأول؛ هو الإصلاح المعرفي الذي يفجّر طاقات الإبداع العقلي في مجال العلوم الكونية، تأسيسا على الوحي كمصدر للعلم وفلسفته، والإصلاح الثاني؛ هو الإصلاح التربوي(الزكوي)، ويتأسس على الإصلاح المعرفي ليفجّر طاقات الإيمان في القلب المسلم. والإصلاح التربوي هذا لابد فيه من توظيف العلم المنتج في الإصلاح المعرفي للقيام بالعملية التعليمية، واتباع المنهج النبوي في التربية، وأطلق عليه (تيمّنا) واصطلاحا منهج (الشيخ والمريد)، حيث يقوم الشيخ المتحقق بالإيمان وأخلاق التقوى بتعهد المريد تربويا حتى يتأكد من أنه قد تخلّى عن ظاهر الإثم وباطنه، وأنه قد تحلّى بأخلاق التقوى، تأسيسا على قول الله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10))(الشمس). وهذا المنهج التربوي هو منهج تجريبي وليس عرفاني، ومداخله النظرية والتطبيقية مدونة في كتب أسلافنا من سالكي طريق رسول الله، ﷺ. ولا أقصد التكرار الحرفي لتلك التجارب التربوية، وإنما أقصد دراسة المنهج وتعميمه، بشروط الزمان والمكان، مع الاستفادة من منتجات الإصلاح المعرفي. فالشيخ السالك يمكن أن يكون بطل قصة من "القصص الحق" يقصها المعلّم لتلاميذه(مريديه) وهم يتحلّقون حوله تحت شجرة ظليلة في المدرسة، ثم يستخرج منها الدروس التربوية المستفادة، وعبر منهج تربوي رفيق يدعوهم إلى التحقق في أنفسهم بتلك الدروس التربوية، ويقوم شخصيا برعاية كل تلميذ لمساعدته في عملية التزكّي، كل حسب وسعه. بل يمكن لهذا المنهاج بكل أبعاده التي ذكرت أن يصمم ويخرج في شكل أفلام إلكترونية مشوّقة بالاستفادة من كل الإمكانات الهائلة، والمؤثرات ذات التأثير البالغ التي تتيحها التكنولوجيا الرقمية، ومن ثم يتاح للتلاميذ وغيرهم للتحميل عبر الإنترنت في أجهزتهم الإلكترونية ليتحقق التفاعل الفردي والجمعي، وفي الأوقات التي تناسب كل مريد، مع المادة التربوية بشرط المتابعة من قبل المؤسسات المختلفة المعنية بالعملية التربوية في المجتمع لاستكمال الجوانب الإرشادية الضرورية. ولأن التكلفة المالية لمشروع كهذا سوف تكون باهظة فالأفضل أن يتم تمويله وقفيا، على أن تحشد له القدرات الفنية الابداعية من كل أنحاء العالم. لابد أن يكون المسلم الراشد، الذي تكون مقاصد الدين ووسائل تحقيقها- الشرعة والمنهاج- هي خياراته الحياتية الإرادية، هو ثمرة هذا الإصلاح التربوي.

نحن في هذا الزمان لم نعد نربّي، ولكن فقط نعلّم تلْقينا للمعلومات المتاحة في المناهج التعليمية، وهي مناهج ذات مضامين معرفية إما غربية علمانية فاقدة للروح التي تجعلها مثمرة في الغرب، وإما إسلامية تراثية منقطعة عن الواقع التاريخي الذي أنتجها، وعن تحديات الواقع المعاصر الذي توظف فيه. لذلك أصبحت الأمة الإسلامية اليوم كالمنبت، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

هناك الإصلاح الثالث، وهو الإصلاح الإرادي الذي يتأسس على الإصلاحين من قبله ليطلق طاقات العمل الصالح الحر المبدع لدى المسلم الراشد في مجال العمران الاستخلافي. هنا مجال إصلاح الدوافع والنوايا (المقاصد) لتكون نيّة المسلم

خير من عمله، ومجال تصويب الإرادات الفردية والجمعية لتتصوّب نحو زينة الحياة الدنيا (المال، البنون) لتحقيق مقاصد الدين في مجال العمل العمراني الصالح، شكرا يزيد النعمة ويديمها، ومجال الإصلاح المؤسسي والبنيوي حيث البنية التحتية اللازمة لانطلاق العمل الصالح في فضاء زينة الحياة الدنيا دون عوائق. والقرآن الكريم يربط ربطا وثيقا بين انعقاد الإرادة القلبية على الفعل وبين العمل الخارجي الذي يتبعها، ويأتي على شاكلتها حتما، إلا أن تحول بينه وبين التحقق إرادة مناهضة وغالبة له، ودليلنا على ذلك هذا الفيض من آيات القرآن الكريم:(فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (16)) (البروج)؛ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .....(185))البقرة(.. يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ ... (176)(البقرة)؛ (أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ ....108)(البقرة)؛ (... تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67)) (الأنفال)؛ (... قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10) (ابراهيم) (فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا(103) (الإسراء)؛ (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .... (82)□ (الكهف)؛ □...فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا(77)) (الكهف)؛ (يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ 37 (المائدة)(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98))(الصافات)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19))(الإسراء).

المضامين المعرفية التي وردت في إطار هذه الإصلاحات الثلاثة يجمعها قول الله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(164)(آل عمران) . جاء في تفسير المنار حول معنى هذه الآية الآتي: "الْوَصْفُ الثَّانِي قَوْلُهُ: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: الْآيَاتُ هِيَ الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَتِلَاوَتُهَا عِبَارَةٌ عَنْ تِلَاوَةِ مَا فِيهِ بَيَانُهَا وَتَوْجِيهِ النُّفُوسِ إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا وَالِاعْتِبَارِ بِهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ، كَقَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي أَوَاخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [3: 190] وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [2: 164]) وَمِنْهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ كَلِمَةُ " الْآيَاتِ " كَقَوْلِهِ – تَعَالَى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [91: 1، 2] إِلَخْ).

الْوَصْفُ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: (وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)قَالَ الْأُسْتَاذُ: تَزْكِيَتُهُ إِيَّاهُمْ هِيَ تَطْهِيرُهُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ وَوَسَاوِسِ الْوَثَنِيَّةِ وَأَدْرَانِهَا، وَالْعَقَائِدُ هِيَ أَسَاسُ الْمَلَكَاتِ ; وَلِذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ الْعَرَبَ وَغَيْرَهُمْ كَانُوا قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ – ﷺ - مُلَوَّثِينَ فِي عُقُولِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ. أَقُولُ: قَدْ سَبَقَ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ (2: 129) أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّزْكِيَةِ تَرْبِيَةُ النُّفُوسِ، وَأَنَّهُ – ﷺ - كَانَ مُرَبِّيًا وَمُعَلِّمًا، وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ الْعَقَائِدَ أَسَاسُ الْمَلَكَاتِ، أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَزَكَّ عَقْلُهُ وَيَتَطَهَّرْ مِنْ خُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ وَجَمِيعِ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ لَا تَتَزَكَّى نَفْسُهُ بِالتَّخَلِّي عَنِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَالتَّحَلِّي بِالْمَلَكَاتِ الْفَاضِلَةِ ; فَإِنَّ الْوَثَنِيَّ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِهَا الْمُسَبَّبَاتُ مَنَافِعَ تُرْجَى وَمَضَارَّ تُخْشَى مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ تَعْظِيمُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالِالْتِجَاءُ إِلَيْهَا لِيُؤْمَنَ ضُرُّهَا، وَيُنَالَ خَيْرُهَا، وَيُتَقَرَّبَ بِهَا إِلَى خَالِقِهَا وَأَنَّ مَنْ يَعْتَقِدُ هَذَا يَكُونُ دَائِمًا أَسِيرَ الْأَوْهَامِ، وَأَخِيذَ الْخُرَافَاتِ، يَخَافُ فِي مَوْضِعِ الْأَمْنِ وَيَرْجُو حَيْثُ يَجِبُ الْحَذَرُ وَالْخَوْفُ، وَتَتَعَدَّى قَذَارَةُ عَقْلِهِ إِلَى نَفْسِهِ فَتَفْسُدُ أَخْلَاقُهَا وَتُدَنَّسُ آدَابُهَا، فَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ لَا تَتِمُّ بِتَزْكِيَةِ الْعَقْلِ، وَلَا تَتِمُّ تَزْكِيَةُ الْعَقْلِ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَمَّا تَعْلِيمُهُمُ الْكِتَابَ فَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ قَدِ اضْطَرَّهُمْ إِلَى تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ بِالْقَلَمِ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْأُمِّيَّةِ ; لِأَنَّهُ دِينٌ حَثَّ عَلَى الْمَدَنِيَّةِ وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ.

أَقُولُ: كَانَ أَوَّلَ حَاجَتِهِمْ إِلَى تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ وُجُوبُ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ، وَقَدِ اتَّخَذَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَتَبَةً لِلْوَحْيِ وَكَتَبُوا لَهُ كُتُبًا دَعَا بِهَا الْمُلُوكَ وَالرُّؤَسَاءَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ بِتَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ. ثُمَّ كَانَ ذَلِكَ يَكْثُرُ فِيهِمْ عَلَى قَدْرِ نَمَاءِ مَدَنِيَّتِهِمْ وَامْتِدَادِ سُلْطَتِهِمْ، قَالَ: وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فَهِيَ أَسْرَارُ الْأُمُورِ وَفِقْهُ الْأَحْكَامِ وَبَيَانُ الْمَصْلَحَةِ فِيهَا وَالطَّرِيقِ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا، ذَلِكَ الْفِقْهُ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ، أَوْ هِيَ الْعَمَلُ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَى هَذَا الْفِقْهِ فِي الْأَحْكَامِ أَوْ طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ بِبَرَاهِينِهَا ; لِأَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ وَسُنَّتُهُ فِي الْعَقَائِدِ وَكَذَا فِي الْآدَابِ وَالْعِبَادَاتِ ; وَقَدْ مَرَّتِ الشَّوَاهِدُ الْكَثِيرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَسَيَأْتِي مَا هُوَ أَكْثَرُ وَأَغْزَرُ إِنْ شَاءَ اللهُ - تَعَالَى-.

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيْ وَإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ضَلَالٍ بَيِّنٍ وَاضِحٍ. وَأَيُّ ضَلَالٍ أَبْيَنُ مِنْ ضَلَالِ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَتَّبِعُونَ الْأَوْهَامَ أُمِّيِّينَ لَا يَقْرَءُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ، فَيَعْرِفُونَ كُنْهَ ضَلَالَتِهِمْ وَحَقِيقَةَ جَهَالَتِهِمْ، فَضَلَالُهُمْ أَبْيَنُ مِنْ ضَلَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ." أه.

فقوله تعالى (يتلو عليهم آياته) هو علم الله تعالى الموحى، المكنون في الكتاب، وهو يؤسس للإصلاح المعرفي من حيث هو رؤية علمية موضوعية للوجود، ونظام معرفي توحيدي يشاد عليه بنيان علوم الدين. وقوله تعالى (ويزكيهم) يؤسس للإصلاح التربوي الذي يجعل من مخرجات الإصلاح المعرفي قاعدته العلمية. وقوله تعالى (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يؤسس للإصلاح الإرادي حيث تَعلُّم مقاصد الدين الحياتية، وأحكامه الشرعية، ومن ثم تولد النوايا والإرادات المناسبة، وما يتبع ذلك من تحقيق المقاصد عملا في الواقع العمراني، والتزاما بالأحكام الشرعية في ضبط الفعل الاجتماعي المحقق لتلك المقاصد.

إن الحقيقة التي يجب تأكيدها هي أن خصائص النفس البشرية الثلاث التي ذكرناها آنفا(العقلية، الوجدانية، الإرادية) مستقرها ومستودعها هو "القلب" بمفهومه القرآني، وهو مفهوم جليل وخطير. القلب في القرآن والسنة هو جوهر الإنسان، ويجب أن يكون المستهدف بالعمران التوحيدي، على المستوى العقلي لأنه هو الذي يعقل كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم. فهو الذي يعقل لأنه هو الذي يبصر حقيقة، فإذا عمي لم تنفع رؤية العين للأشياء إلا ما ظهر منها، وكم للأشياء من ظاهر وباطن: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46))(الحج). وهو الذي يعقل لأنه هو الذي يسمع حقيقة، وإذا طُبع عليه لم ينفع سماع الآذان للأصوات واللغات، إلا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، وكم للّغات من دلالات وإشارات: (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ(100))(الأعراف).

والقلب هو الذي يجب أن يكون المستهدف بالعمران التوحيدي على المستوى الوجداني لأنه هو الذي يَوْجد، فهو لا يفتأ يتقلب بين القسوة والرحمة، وبين البغض والحب، وبين حمية الجاهلية وسكينة الإيمان: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(74)) (البقرة)؛ (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (27))(الحديد)؛ (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ 16)(الحديد)؛ (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))(الفتح).

والقلب هو الذي يجب أن يكون المستهدف بالعمران التوحيدي على المستوى الإرادي لأنه هو الذي يريد، وفيه تتولد كل أنواع الإرادات فيأتي الفعل على شاكلتها، صالحا، أو فاسدا، عظيما، أو حقيرا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ 24(الأنفال). جاء في الحديث الشريف (صحيح عند الألباني): (حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ جَابِرٍ، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ السَّلَامِ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ): «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»).

إن القلب هو الواصل بين العبد وربه، وهو الواصل بين الوحي والعمل الإنساني الصالح من جهة، وبين العمل الإنساني الصالح والخلق الكوني من جهة أخرى، لذلك فإن الله تعالى لا ينظر إلى صور الناس، ولكن ينظر إلى قلوبهم. إن القلب خُلق ليكون عابدا؛ فلابد له إذاً من إله، فإن لم يكن الله كان إلهه هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هُدىً من الله. إن الهوى هو سفير الشيطان في قلب كل إنسان، وهو لذلك، أي القلب، مستقبلٌ لكل أنواع الواردات الشيطانية، ابتداءً من الوسوسة، مرورا بكل أنواع الغواية الصوتية والمرئية، والأفكار الإلحادية، وانتهاءً بكل أنماط الفعل الاجتماعي المفضي إلى الفساد في الأرض. وفي آيات قرآنية بليغة يسأل الله تعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، الملائكة عن ماذا كان يعبد الناس من دون الله في حياتهم الدنيا، وهو أعلم بما كانوا يفعلون: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ(41)) (سبأ).

إن عنصرا(القلب) بهذا القدر من الخطر لجدير بأن يكون بأعين أهل النظر والعمل في كل أمة من الأمم، لا سيما أمة الإسلام، فيوالونه بالبحوث العلمية المتكاملة، عبر مؤسسات علمية متخصصة، لمعرفة أحواله وأطواره والمؤثرات فيه، وكيف تتخلّق شخصية الإنسان بداخله عبر مراحل العمر المختلفة، وما هي السياسات والوسائل التعليمية والتربوية التي يمكن أن تحكم التفاعل الإدراكي والوجداني والإرادي في القلب بحيث تتيسّر صياغة الشخصية السويّة الإيجابية للمسلم (المسلم الراشد). إن الأعمال العظيمة، كمّا ونوعا، وتلك الحقيرة، كمّا ونوعا، تصدر عن القلب، ولا يحصد المجتمع من

العمل من أفراده إلا بمقدار ما زرعه في قلوبهم منذ صغرهم. لذلك يجب أن يكون للقلب دور مركزي في "رؤية الإسلام للعالم"، وقد كان الأمر كذلك في قرون الإسلام الأولى، ثم تراجع كما تراجعت كل أسباب الصلاح في الأمة.

من الدلالات المهمة لهذا التحليل أن علوم الإسلام التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في الحياة، وتحقيق الاستخلاف التوحيدي، مستقاة من الوحي والكون، هي في الأساس علوم كونية تجريبية، باستثناء العلوم العقلية المحضة كعلوم المنطق والرياضيات وقضايا فلسفة العلم التي هي مما لا يتم الواجب إلا به . ونقصد بالتجريبية الآتي:

(البحث التجريبي هو وسيلة لكسب العلم بطرق الملاحظة، أو التجربة المباشرة، أو غير المباشرة. الدليل التجريبي- السجل المباشر للملاحظات والتجارب- يمكن تحليله كميا أو نوعيا. ومن خلال الصياغة الكمية للدليل، أو الفهم النوعي له، يستطيع الباحث الإجابة عن أسئلة ذات طبيعة تجريبية، مصاغة بصورة واضحة تسمح بالإجابة عنها من خلال ما تم جمعه من أدلة. يختلف تصميم البحث بحسب المجال والقضية محل البحث، وهناك من الباحثين من يجمع بين شكليّ التحليل، الكمّي والنوعي، للحصول على إجابة أدق لتلك الاسئلة التي لا يمكن دراستها معمليا، لا سيما في مجال العلوم الاجتماعية، وفي التعليم) .

التجريبية لا تعني "الوضعية" التي هي فلسفة للعلم تزعم أن الكون المحسوس هو وحده الذي يمكن أن يُعلم حقا للإنسان، وأن التجربة الحسية هي وحدها السبيل للحصول على ذلك العلم، بينما التجريبية تعني أن تحتوي المقولات العلمية، أنّى كان مصدرها، على محتوىً تجريبي يمكن من خلاله اختبار صدقها. فالتجريبية نظرية ومنهج علمي معتمد في الفلسفة الوضعية، ولكنها لا تستقل به دون غيرها من فلسفات العلم، فالمنهج التجريبي هو مولود شرعي للعلوم التي تولدت عن الحضارة الإسلامية من قبْلِ أن توضع الوضعية. ونحن هنا نقول إن العلوم الضرورية التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في واقع الحياة المتجدد أبدا، سواء كان مصدرها الوحي، أو الكون الطبيعي والاجتماعي، سوف يكون المكوّن التجريبي سمة أساسية فيها. ذلك أن العلم الضروري المطلوب في الإسلام لإقامة الدين هو العلم المتعلق بالمحورين الثاني(الإيمان) والثالث(العمران)، وتنقسم بدورها إلى علوم مقاصد وعلوم وسائل، بينما العلم المطلوب للمحور الأول(العلم التوحيدي) فيمكن تسميته ب(علم العلم) الذي يدخل في باب ما لا يتم الواجب إلا به، وفيه تبحث القضايا التي تبحثها فلسفة العلوم عادة، مثل القضية الوجودية، القضية المعرفية، والقضية المنهجية. وفي إطار "علم العلم" هذا تناقش قضايا إسلامية منهجية مثل: "كيف نتعامل مع القرآن"؛ "كيف نتعامل مع السنة"؛ "منهجية القرآن المعرفية"؛ "الجمع بين القراءتين"؛ "التكامل المعرفي"؛ "أصول الفقه"...إلخ. وكل علم متخصص ومطلوب لإقامة الدين، بشروط الزمان والمكان، لابد أن ينتهي نسبه إلى الوحي، وتناقش قضاياه بهذا الشأن في محور "علم العلم". أما العلم المتعلق بالإيمان بالله تعالى فإن أدلة الإيمان كما وردت في القرآن الكريم، إضافة إلى القرآن الكريم ذاته كدليل إيمان مستقل بذاته باعتبار أن العلم الذي فيه شاهد على مصدره، هي أدلة كونية تقتضي النظر العلمي في الكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي. ثم هناك العلم المتعلق بحقيقة الإيمان ذاته بشعابه المختلفة بعد دخوله في القلب، وأسباب الزيادة والنقصان الذين يعتريانه. وأما علوم العمل الصالح في مجال عمران الأرض فهي بالضرورة علوم كونية، سواء كانت العلوم التي تتعلق بالمادة موضوع العمران، أو العلوم التي تتعلق بالإنسان الفاعل في المادة، بما في ذلك العلوم ذات الأبعاد المعيارية كعلوم الفقه والتربية(التزكية). وميزان الحق في الأحكام المعيارية، فهماً لحقيقتها وضبطاً للفعل الاجتماعي المحقق لمقاصد الشريعة بها، هو الوحي ابتداءً، والنتائج العملية لتطبيقها في الواقع انتهاءً. والكونية هنا تشمل المجالين الطبيعي والاجتماعي، مع تباين البيانات والإجراءات التجريبية التي تقتضيها الطبيعة الخاصة بكل منهما، ومن ثم حتى علم الفقه، ذو المنطلقات المعيارية، المعني بدراسة أحكام التكليف والوضع للفعل الإنساني، هو علم كوني اجتماعي تجريبي، ذلك أن الفقيه قبل أن يصدر حكمه على الواقعة لابد له من دراستها، أي لابد له من فقه الواقع المتعلق بالمسألة، ولابد له في ذلك من توظيف المناهج التجريبية التي ينبغي تطويرها في مجال العلوم الاجتماعية الإسلامية. والمعيارية والقيمية الآتية من الوحي لعلوم الحياة الإسلامية مطلوب العمل بها في الواقع لتغيّره، ثم لتَحكُمه على الدوام، ليتحقق الصلاح في الأرض ويدوم. ولا سبيل إلى التحقق من سلامة الفهم، والاستنباط من نصوص الوحي، وسلامة التطبيق، إلا بعلوم تبدأ من الوحي، وتنتهي بدراسة الواقع، وأخذ بياناتها منه. لذلك حتى علم التربية (التزكية) الإسلامي الذي اقترحت (تيمنا) أن يسمَّى منهجه بمنهج "الشيخ والمريد" في إطار الإصلاح التربوي، هو علم تجريبي يقوم على تطبيق المنهج النبوي في تزكية النفس، ويقتضي ذلك، في هذا الزمان، من العالِم المربّي القيام بتجارب تربوية يتم تصميمها بعناية تناسب طبيعة القيمة الأخلاقية السالبة المراد التخلّي عنها، أو القيمة الأخلاقية الموجبة المراد التحلّي بها، والوضع الحالي للشخص المستهدف بالتزكية، والبيئة العامة التي تحيط به ويتأثر بها ويؤثر فيها، سواء كانت التجربة للعالِم في خاصة نفسه، أو بهدف تأديب مريديه. تنبني التجربة التأديبية على علم أوّلي، أصل منشئه الوحي، يسبق التجربة ويحيط بكل عناصرها، ومن بعد ذلك وأثناء العملية التربوية تتم مراقبة القلب وأحواله، وأنماط الاستجابة التي تبديها النفس، والسلوك الناجم عن ذلك في مختلف الأحوال، ورصد وتصنيف كل ذلك بحسب مناسبته، أو مجانبته

للمطلوب لنجاح التجربة التربوية، ثم التعميم، بعد الجم الغفير من التجارب، للحصول على قواعد العلم المتعلق بالنفس البشرية في كل الأحوال التي تتطلب تأديب النفس، لا سيما فيما يتعلق بتخلّيها عن أخلاق الفجور وتحلّيها بأخلاق التقوى.

يدخل في معنى التجريبية أيضا الأفعال الاجتماعية التعبدية المتعلقة بالشعائر وعلومها من صلاة وصوم وحج وزكاة، لأنها، أولا؛ فعل اجتماعي تعبدي تتأثر بذات العوامل التي تؤثر في سائر أنواع الفعل الاجتماعي، الذي من طبيعته أن يكون تعبديا في المجتمع المسلم، وقد يكون غير ذلك بحكم الواقع. ثانيا؛ لأن العمل العمراني في زينة الحياة الدنيا لكي يكون صالحا يقتضي إقامة هذه الشعائر التعبدية على مستوى الفرد والمجتمع. والعمل الصالح هو ما كان خالصا لله تعالى ومنضبطا بما أقره الشارع من أحكام ووسائل تتعلق به. الصلاة، مثلا، تنهى عن الفحشاء والمنكر كما جاء في القرآن الكريم، وهي جملة خبرية، يصدقها المؤمن اعتقادا بيقينه من الحق الذي جاء به القرآن الكريم، ولكن التصديق العملي لها يقتضي التجريب(العمل)، أي أن يصلي المسلمون كما رأوا الرسول، □، يصلي ليتبينوا حقيقة الخبر. وبعد تجربة الصلاة كعبادة وعمل اجتماعي راتب للمؤمنين يجب أن تأتي الدراسة الميدانية لمعرفة أثرها على المصلّين وعلى بيئتهم الاجتماعية والطبيعية، فإن تبين أنها لم تؤد إلى النتيجة المخبر عنها ترتب على ذلك مراجعة كيف صلّى المصلّون، أي مراجعة جملة العمل المتعلق بالصلاة كفعل اجتماعي، بل ربما اقتضى ذلك مراجعة الفقهاء لفقههم في الصلاة الذي بمقتضاه تعلم الناس الصلاة، ومدى ملاءمته لشروط الزمان والمكان. كما يمكن القيام بتجربة أخرى تحكمية حيث نختار عينات تصلي وأخرى لا تصلّي لنقارن أثر الصلاة على متغيرات كثيرة، كمية ونوعية، فردية وجمعية. ذلك أن المجال الحقيقي للفحشاء والمنكر، اللذين تنهى عنهما الصلاة، إنما هو زينة الحياة الدنيا (المال والبنون)، حيث ابتلاء النفس بفجورها وتقواها، تدافعا بين الناس لتعظيم حظوظهم من المتاع الدنيوي: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا(7))(الكهف)؛ (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(46))(الكهف). لذلك فإن الاختبار الحقيقي لاعتبار جدوى الصلاة كعبادة مقبولة عند الله تعالى، وكعمل اجتماعي صالح عند الناس، هو اختبار تجريبي يكون بتحقق أثرها في المجال الاجتماعي، وقد قال الله تعالى في ذلك: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2)وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(3) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ(4)الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ(6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(7)) (الماعون). بهذا الاعتبار يظهر البعد الاجتماعي للصلاة وللعلم المتعلق بها، وهي للأسف أبعاد غائبة، على الجملة، عن الصلاة كفعل اجتماعي، وعن فقهها الموروث. ويصدق ذلك بدرجات متفاوتة على بقية الشعائر التعبدية، فالتقوى المرجوة من عبادة الصوم مجال تحققها اجتماعي(شهوتي البطن والفرج)، وصدقة المال التي تطهّر وتزكّي تحقق ذلك في المجال الاجتماعي، والحج لا يكون مبرورا إلا إذا أدى بصاحبه إلى التجافي عن دار الغرور(الحياة الدنيا) بزينتها (المال والبنون)، والإنابة إلى دار الخلود (الآخرة) بالعمل الصالح في زينة الحياة الدنيا (المال والبنون). وحقيقة الأمر أن علم الأحكام الشرعية المتعلق بالشعائر التعبدية (فقه العبادات) هو علم محدود ومستقر وقتل بحثا، وليس هناك الكثير الذي يمكن إضافته إليه مهما تقدم الزمان، ولكن العلم المتعلق بالأبعاد الاجتماعية لهذه الشعائر، سواء في تحققها كعبادة، أو في آثارها، هو مجال للعلوم الاجتماعية بكر في مجمله وينتظر الاستكشاف. ولابد أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الصلاة والشعائر التعبدية الأخرى موضوعا للدراسة والتدريس والبحث العلمي في كليات الاقتصاد وغيرها من كليات العلوم الاجتماعية، من حيث هي ظواهر اجتماعية ذات آثار بعيدة المدى في جميع أوجه الاجتماع الإنساني المسلم. ومثل هذه الأبحاث ونتائجها العلمية سوف تكون ذات أهمية بالغة في مراجعة وتصحيح الطريقة التي نقيم بها ديننا، ونؤدي بها شعائرنا، فلو أن نتائج البحث العلمي الاجتماعي أثبتت تفشي الفحشاء والمنكر في المجتمع لاقتضى ذلك استنفارا من الفقهاء لمراجعة أمر الصلاة فيه. ومدار الأمر كله في هذه القضية المنهجية هو أن الدين يبدأ بعلم من الوحي وينتهي بعمل، والعمل هذا هو تجريب في الواقع الاجتماعي لحقائق الدين التي جاء بها الوحي، وهذا التجريب، بما يؤدي إليه من تغيير في الواقع الاجتماعي المستهدف، وبما يوفره من بيانات ومعلومات اجتماعية وطبيعية، هو الذي يجعل علوم الأمة في المجال الاجتماعي، بما في ذلك الفقه، علوم ذات مكوّن تجريبي بالضرورة كالعلوم الطبيعية، مع مراعاة الاختلاف في طبيعة الظاهرتين، وما يقتضيه ذلك من تباين في طبيعة القوانين التي تحكم الطبيعة، والسنن التي تحكم الاجتماع الإنساني، ومن ثم اختلاف البيانات والإجراءات التجريبية المطلوبة لكل من الظاهرتين.

لذلك ليس مستغربا أن يكون المنهج العلمي التجريبي الذي تأسست عليه علوم الحضارة المعاصرة هو الوليد الشرعي للحضارة الإسلامية، ومن أكبر إسهاماتها للحضارة البشرية، كما يعترف بذلك علماء تاريخ العلوم الغربيين أنفسهم. يقول بريفولت: (إن الإغريق نظّموا وعمموا ونظّروا، ولكن الطرق الصبورة في الملاحظة الدقيقة والمطوّلة، ومنهج الاختبار بعيدة كل البعد عن طباع الإغريق...إن ما نسميه بالعلوم جاء نتيجة لمناهج جديدة في التجربة والملاحظة والقياس أدخلت إلى أوروبا بواسطة العرب. إن العلم الحديث هو أكبر إسهامات الحضارة الاسلامية) . وعندما انحسر المنهج التجريبي عن حياة الأمة الإسلامية، مع انحسار حضارتها التوحيدية، ذبل العلم لانقطاعه عن واقع الأمة، وأصبحت حياة الأمة كلها،

أفرادا وجماعة، تسير بلا هدى لأن مبدأ "ولا تقف ما ليس لك به علم" لم يعد يُعمل به. ولما انتقل المنهج العلمي التجريبي إلى أوربا من خلال عملية تثاقف حضاري مع العالم الإسلامي، معلومة الزمان والمكان، إذا بالعلم الكوني يتنفس في أوربا، وإذا بالحضارة تدب الحياة في أوصالها هناك، ثم كان ما كان مما هو معلوم من أمرهم وأمرنا.

لذلك عرّفنا العلم التوحيدي تعريفا وظيفيا بأنه ذلك الذي (يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض) ، وبهذا التعريف لم تعد لدينا علوم شرعية وعلوم كونية وضعية، بل كلها شرعية ما دامت مطلوبة لإقامة الدين، ذلك أن الشريعة في القرآن هي الدين الموحى كله لقول الله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(13)). وربما لهذا السبب نجد أن كلمة "عِلْم" ترد دائما في القرآن الكريم بصيغة المفرد، ولا تجمع أبدا، دلالة على أن العلم التوحيدي هو علم واحد، مهما تعددت مستوياته وتنوعت مجالاته؛ هو ذلك الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض. ولما قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء ذكر علماء العلوم الكونية ممن تحققوا بالإيمان:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(28)) (فاطر).

والشريعة لغة هي: " الطريق الظاهر الذي يوصل إلى الماء، وتطلق على مورد الشاربة الذي يشرعه الناس: أي ينحدرون إليه فيشربون منه ويستقون. والعرب لا تسمي ذلك الموضع شريعة حتى يكون عدّا لا انقطاع له، ويكون ظاهرا معينا لا يسقي بالرشاء" ؛ ولا يتحقق ذلك إلا بشرعة (الماء الكثير)، ومنهاج (طريق واسع) يوصل السائمة إلى مقصدها (الماء الكثير). وقد جاء في "التحرير والتنوير" لابن عاشور ما يلي: (وَالشَّرِيعَةُ: الدِّينُ وَالْمِلَّةُ الْمُتَّبَعَةُ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّرْعِ وَهُوَ: جَعْلُ طَرِيقٍ لِلسَّيْرِ، وَسُمِّيَ النَّهْجُ شَرْعًا تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ. وَسُمِّيَتْ شَرِيعَةُ الْمَاءِ الَّذِي يَرِدُهُ النَّاسُ شَرِيعَةً لِذَلِكَ، قَالَ الرَّاغِبُ: اسْتُعِيرَ اسْمُ الشَّرِيعَةِ لِلطَّرِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ تَشْبِيهًا بِشَرِيعَةِ الْمَاءِ قُلْتُ: وَوَجْهُ الشَّبَهِ مَا فِي الْمَاءِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَهِيَ الرِّيُّ وَالتَّطْهِيرُ. والْأَمْرِ: الشَّأْنُ، وَهُوَ شَأْنُ الدِّينِ وَهُوَ شَأْن من شؤون اللَّهِ تَعَالَى). ومن هذا المعنى علمنا من القرآن الكريم أن الدين الموحى(الشريعة) هو شرعة(مقاصد)، ومنهاج(وسائل): (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(48))(المائدة). وبهذا المعنى أيضا فإن الدين الموحى (الشريعة)، كما ذكر القرآن الكريم، إنما شرعت لتتبع(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18))(الجاثية). والاتباع للشريعة الموحاة واجب من أجل إقامة الدين الكسب في الواقع الاجتماعي الظرفي، على مستوى الفرد والجماعة، فكلٌّ مكلف بإقامة دينه في حياته مخلصا دينه لله تعالى: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14))(الزمر)؛ (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)) (النساء). فالدين في الواقع الاجتماعي الظرفي هو كسب الناس من التدين باتباع الشريعة الموحاة في حياتهم، وهو بنيان وله ساس يتأسس عليه هو (تقوى الله تعالى ورضوانه): (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ(18))(الجاثية) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي(14))(الزمر)

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا(146))(النساء) (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ(13)) (الشورى). ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى:(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(109))(التوبة).

الدين، إذن، بنيان يقام وله أساس تربوي لابد أن يبدأ به أي مشروع إسلامي يبغي التحقق في الواقع الزماني والمكاني، ومن ثم فإن الشريعة الموحاة نشبّه دورها في هذا البنيان الديني بدور الخريطة الهندسية التي يضعها المهندس المعماري، والتي لابد من اتباعها بدقة ليأتي البنيان المقام في الواقع مطابقا لتصورها له. والشريعة بهذا الاعتبار ليست مجرد أحكام شرعية تطبق كما هو شائع في الاصطلاح ، وفي خطابنا الشرعي في هذا الزمان، لأن الأحكام الشرعية، والعمل الإنساني الملتزم بها، هي مجرد وسيلة من وسائل الشارع، وإن كانت الأهم، لتحقيق مقاصده في الخلق، والمقاصد مقدمة وحاكمة على الوسائل بداهة. وشتان بين مفهوم إقامة الدين ودلالاته النظرية والتطبيقية، وبين مفهوم تطبيق الشريعة ودلالاته النظرية والتطبيقية. كذلك فإن زوايا النظر العلمي التي ينبغي أن تحيط بالفعل الاجتماعي وتكيّفه بما يحقق مقاصد الشريعة، ويقيم

بنيان الدين في الحياة، تتجاوز بكثير علم الأحكام الشرعية(الفقه)، وما زالت علوم الدين الاجتماعية هذه تنتظر التأسيس لتؤدي دورها الضروري في إقامة الدين.

لذلك أرى أن هنالك ضرورة لمراجعة الخطاب بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، لأن أصحاب هذا الخطاب لا يقصدون، فيما يبدو من ظاهر أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم، من الشريعة إلا معناها الاصطلاحي، وهو تقنين وتطبيق الأحكام التكليفية العملية. والشريعة بهذا المعنى الاصطلاحي هي مجرد منهاج(وسيلة) لابد لها من شرعة(مقصد)، والمقاصد لابد أن تتقدم الوسائل، لا من حيث الترتيب فحسب بل من حيث الأهمية، فهي التي تحدد ما يناسبها من وسائل. إحدى نتائج هذا الكلام هي أن أصول الفقه، بجانب الوحي، هي في الحقيقة مقاصده الشرعية، وأصول المقاصد الشرعية الكلية هو الوحي الكريم، بينما يدخل الواقع الاجتماعي الظرفي حيث يقام الدين كأصل فقهي في المقاصد الفرعية التفصيلية. وإذا كان الأمر كذلك فما معنى التركيز على تطبيق الوسيلة مع إهمال تام لمقاصدها؟ ثم إن الأحكام التكليفية العملية هي زاوية واحدة من زوايا النظر العلمي إلى الفعل الاجتماعي، الذي هو الوسيلة الحقيقية لتحقيق مقاصد الدين في الواقع. ولكن ماذا عن زوايا النظر العلمية الأخرى لذات الفعل، والتي لا تقل أهمية عن النظرة الفقهية، حتى يأتي المكلّف بالفعل الأرشد، وبالطريقة الأفعل ذات الأثر الأكبر، لتتحقق مقاصد الدين في الواقع بطريقة أمثل؟ آن الأوان لرد الاعتبار لعلوم الدين الطبيعية والاجتماعية التي بدونها لا سبيل إلى حفظ الإيمان بالله تعالى في هذا الزمان، ولا سبيل إلى تحويل الفعل الاجتماعي إلى عمران للأرض بما يحقق مغزى الاستخلاف بقصد الشكر لله تعالى في زينة الحياة الدنيا، وهذا هو مجال الابتلاء، ومضمار السباق لمن أراد الدنيا ولمن أراد الآخرة، وهو لذلك جوهر الدين.

العلوم الاجتماعية كلها تدور حول دراسة الفعل والتفاعل الاجتماعي، والبيئة الاجتماعية التي في إطارها يقع الفعل ويتم التفاعل، وليس هناك من فعل اجتماعي، أو تفاعل، إلا ويتأسس على مقاصد يتوخى تحقيقها الفاعلون والمتفاعلون. لذلك فإن المقاصد تأخذ موقع القلب في بنية الفعل الاجتماعي، ومن ثم في بنية العلوم التي تدرس الفعل الاجتماعي وتمظهراته، مما يعني أن مقاصد الشريعة الإسلامية باعتبارها مقاصد معيارية ينبغي على المسلم تحري تحقيقها في حياته، سوف تشكل أساسا لبناء كل العلوم الاجتماعية الإسلامية المعيارية، بما في ذلك الفقه، التي تسعى لدراسة أفعال المسلم الراشد ووقعها في الحياة بمظاهرها المختلفة. لذلك إذا توصل علم الاقتصاد، مثلا، إلى أن أفعالا اقتصادية بعينها لابد منها لتحقيق مقصد ضروري من مقاصد الشريعة، انعقدت له الأولوية الظرفية، فإن علم الفقه لا يسعه إلا أن يحكم بوجوب تلك الأفعال على المكلفين المعنيين. ولا يعني هذا أن علوم الاجتماع الإسلامية كلها معيارية، بل منها علوم تفسيرية مهمتها تفسير الواقع الاجتماعي على ما هو عليه، ومعرفة السنن الاجتماعية التي أنتجته، وهو واقع يغلب أن يكون محصلة تدافع المكلفين، تدفعهم مقاصد حياتية شتى، بعضها ديني وبعضها دنيوي بحت، ولذلك خلقوا. وهذا التدافع يدخلهم بالضرورة في السنن الاجتماعية الإلهية الحاكمة لكل تدافع بشري كما هي مبينة في الوحي الإلهي.

لكل ما سبق أرى أن الخطاب الأولى بنا هو الدعوة إلى "الحكم بما أنزل الله"، وقد أنزل الله الكتاب والميزان (الشريعة)، وجعل الشرعة (المقاصد)، والمنهاج (الوسائل)، أو أن يكون الخطاب هو الدعوة إلى "إقامة الدين" في الحياة، وهذا هو معنى اتباع الشريعة حقيقة كما وردت في القرآن: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (13))(الشورى)؛ (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18)(الجاثية).

لابد من إعطاء الأولوية القصوى لمقاصد الدين الكلية كمقاصد للحكومة وللمجتمع بأفراده، وأن يتم تقييم أداء أي تجربة إسلامية في الواقع الاجتماعي على أساس ما حققت من مقاصد الدين العليا في حياة الناس، لا على أساس ما تم تطبيقه من أحكام شرعية، فليس هناك من عاقل يقيّم أداءه في الحياة بمقدار ما وظّف من وسائل، ولكن بمقدار ما حقق من أهدافه بتوظيفه تلك الوسائل. إن التميّز في تحقيق الأهداف دليل على كفاءة الوسائل المستخدمة، وفاعلية توظيفها، ولكن العكس ليس بصحيح. ولكن إذا فشلنا في تحقيق أهدافنا فعندها سوف تكون مراجعة الوسائل المستخدمة واحدة من أهم الإجراءات التي يجب اتخاذها للوقوف على أسباب هذا الفشل. إن القانون(الأحكام الشرعية) بطبيعته تضييق وضبط وتقييد بينما مقاصد الدين إطلاق وتحفيز، فإذا وجد الضبط والتضييق والتقييد في غياب المقاصد الحافزة للعمل، المتسقة مع ذلك القانون، المبررة للضبط والتضييق والتقييد، سرعان ما يمل ويتبرّم الإنسان ويبدأ في التفلّت والتجاوز لتلك القوانين بحثا عن مقاصده الخاصة، التي غالبا ما تكون تعظيم متاع الحياة الدنيا.

لابد من الانتباه إلى قضية منطقية من حيث الشكل ولكنها من حيث الجوهر بالغة الخطورة في تقدم أي مجتمع، أو تأخره، وكذلك في نجاح، أو فشل، إقامة الدين في هذا الزمان، وهي قضية الاتساق، أو عدمه، بين المقاصد الحياتية الجوهرية للناس وبين وسائل تحقيقها. الشريعة الإسلامية، بمعناها الاصطلاحي، هي أحكام معيارية وضعها الشارع وسيلة تحكم الفعل الاجتماعي لتحقيق مقاصد الدين في حياة المسلمين، ولكن ذلك يقتضي أن تكون مقاصد المسلمين الجوهرية في

حياتهم موافقة لمقاصد الشارع، وعندها تكون الوسائل الضرورية التي يتوخاها الناس لتحقيق مقاصدهم الحياتية هي الفعل الاجتماعي المنضبط بالأحكام الشرعية. وهذا هو الوضع المثالي ليعطي دين الإسلام أفضل عائد من إقامته، للأفراد وللجماعة، وذلك لاتساق المقاصد ووسائل تحقيقها. ولكن عندما يختار الناس مقاصدهم الحياتية الجوهرية بعيدا عن مقاصد الدين فمن المنطقي أن يبحثوا عن وسائل تحقيقها بعيدا عن الأحكام الشرعية، لأن الفعل الاجتماعي المنضبط بها ليس الوسيلة المتسقة مع مقاصدهم، ومن هنا ينشأ الإشكال الحقيقي حيث إن إلزام الناس بتطبيق الشريعة، بمعناها الإصطلاحي، في حياتهم الفردية والجمعية يكون غير ذي جدوى. وقد يلتزم الناس شكلا بالشريعة (الأحكام الشرعية)، ولكنه يكون التزام نفاق، وتكون الشريعة عبئا ثقيلا على الناس، وعائقا لهم عن تحقيق مقاصدهم الدنيوية التي لابد لهم من تحقيقها لأنها المقاصد الجوهرية لحياتهم. ويترتب على هذا الوضع الناجم عن عدم الاتساق بين مقاصد الناس الحياتية والوسيلة المتاحة لهم لتحقيقها، وهي الأحكام الشرعية، عدة نتائج سالبة، منها فشل المجتمع في تحقيق أهدافه الدنيوية؛ ومنها فشل تطبيق أحكام الشريعة لتفلّت الناس منها؛ ومنها خلق حالة من النفاق الاجتماعي؛ ومنها خلق أجواء من التوتر الاجتماعي، ومنها خلق موقف نفسي سالب من تجارب تطبيق الشريعة في الحياة جملة. والحل يكمن في أن يرتب المجتمع شأنه كله على أساس مقاصد الدين الجوهرية، بشروط الزمان والمكان، لا سيما في المجال المعرفي والمجال التربوي، فتتأسس بذلك القاعدة الفكرية التي تربط بين عالم الناس وعالم الأشياء على أساس متين من مقاصد الدين. ولابد من تربية الناس، منذ طفولتهم الباكرة، على أساس مقاصد الدين الجوهرية حتى يشبوا عليها، ومن ثم يأتي اختيار مقاصد الدين كمقاصد حياتية لهم من عند أنفسهم. أما أن يُترك الناس على هواهم حتى يكبروا، وحتى تصبح الدنيا هي أكبر همهم، ثم تلزمهم جهة ما بأحكام الشريعة الإسلامية، التي هي مجرد وسائل دون مقاصد، فإن ذلك يندرج تحت (دخول البيوت من غير أبوابها).

نخلص من كل ما سبق إلى أن الإصلاح المعرفي ينبغي أن يتصوب نحو دراسة الكون، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، استيفاءً لأدلة الإيمان المتجددة أبدا، وتحقيقا للعمران بشروط الزمان والمكان، مؤسسا فلسفته العلمية على قاعدة الوحي المعرفية. ولهذا الإصلاح المعرفي مقتضيات كثيرة حتى يتحقق ويؤتي ثماره، فهناك عوائق يجب أن تزال، وبنيات تحتية يجب أن تقام.

الإصلاح المعرفي لابد أن يسبق ليمهد للإصلاحين التاليين له، ولما كان القرآن الكريم هو علم من الله تعالى إلى الإنسان فإننا نجد أن جل هذا العلم، لاسيما ما تعلق منه بشواهد الإيمان بالله تعالى، وما تعلق منه بعمران الأرض، ينصرف إلى الكون الذي يحيط بالإنسان، ويُطالَب الإنسان الذي يحتاج إلى مزيد من أدلة التوحيد بعد القرآن، ليؤمن، أو ليطمئن قلبه، أن ينظر في هذا العالم الممتد للحصول على تلك الأدلة: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(11)) (ابراهيم)(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)) (البقرة)(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ(101)) (يونس).

ومفهوم النظر الكوني في القرآن الكريم هو منهج علمي يوصل إلى العلم المتعلق بالحق الذي خلق الله به السماوات والأرض، وهو منهج يفترض وجود العقل في الإنسان(السمع، البصر، الفؤاد، القلب)، وهو ذات العقل الذي قام به تكليف الله تعالى للإنسان بإقامة الدين في الأرض المستخلف فيها. وهذا الاستخلاف بمضامينه القرآنية يتأسس عليه سوق يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، حيث الربح والخسارة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

والمنهج الذي أسست عليه تعاملي مع القرآن الكريم كباحث هو ما شاء الله تعالى أن نحيط به من علمه، تدبرا في القرآن الكريم، بحثا عن رؤية كلية للعالم تربط بين الخالق من جهة وبين الخليقة من جهة أخرى، مع تمييز لموقع الإنسان في هذه العلاقة. إن منهجي العلمي يرتكز أساسا على توظيف أداة النظرية في التعامل مع القرآن الكريم كمصدر إنشائي للعلم وفلسفته. وأرى أن هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع القرآن الكريم كمصدر للعلم الكوني التجريبي، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، سواء لأغراض الإيمان، أو العمران، حيث نؤسس على رؤية القرآن للعالم نظرياتنا وفرضياتنا العلمية، سواء استقيناها من القرآن الكريم مباشرة، أو من الكون بضوابط منهجية من القرآن الكريم، ثم نتحقق من صدقها وجوديا باستخدام المناهج التجريبية المناسبة، فإذا استيقنّا من صدق الفرضية كنا "كأم موسى ترضع طفلها وتأخذ أجرها"، من حيث تثويرنا للطاقات العلمية التي يذخر بها القرآن الكريم، ومن حيث حصادنا عائدا معرفيا في المجال الكوني. وإن لم نبلغ اليقين في الإثبات حافظنا على نظريتنا، وثابرنا في تحسينها بنائيا، وتمحيصها تجريبيا، أما إن استيقنا من دحضها لم يقدح ذلك في صحة الوحي، بل يقدح في صحة فهمنا له، أو صحة مناهجنا في بناء النظريات واستخلاص الفرضيات منه، أو في صحة مناهجنا التجريبية، أو في كل أو بعض من ذلك. إن القرآن الكريم، بوصفه علم من الله تعالى خالق العالم، هو وحده العاصم للعلم البشري من الزلل المنهجي، والإنزلاق نحو النسبية المعرفية التي انتهت إليها التجربة العلمية الغربية، بعد أن

تم تحريف ما سبق من كتب سماوية. إن العقل واللغة البشرية اللذين يوظفهما الإنسان لدراسة الوجود، والتعبير عن حقائقه، لا يكفيان وحدهما لتمكين الإنسان من أساس يقيني من التصورات الوجودية يبني عليه معرفة موثوقة ليؤسس عليها حياة يطمئن بها.

إن الإصلاح المعرفي الذي ندعو إليه هو إصلاح يبدأ من القرآن الكريم كمصدر للعلم وفلسفته، ويتصوب نحو دراسة الكون، الطبيعي والاجتماعي، كدليل إيمان بالله الواحد، ثم باعتباره مجالا مسخرا ليبلو الله تعالى الناس فيه أيهم أحسن عملا. والعلاقة بين الوحي وبين الكون كمصدرين للعلم الإنساني علاقة تفاعلية، يثري العلم التوحيدي المتحصل من تفاعلهما فهم الإنسان لكليهما.

3- الفوائد العملية للأمة الإسلامية من الإصلاحات الثلاثة

هناك عدد من القضايا ذات الأبعاد العملية التي تهم الأمة الإسلامية اليوم مما يترتب على ما جاء في هذه الورقة المنهجية نوجزها في الآتي:

أولا؛ دين الإسلام يتكون أساسا من علم توحيدي أساسه الوحي، ومجال تصديقه الكون، وإيمان قلبي أساسه العلم التوحيدي، وعمل صالح عمراني أساسه العلم والإيمان؛ ثلاث حلقات متداخلة لا تنفصم عراها. لذلك لابد من إعادة النظر في فهمنا لحقيقة ديننا، والأبعاد الزمانية والمكانية التي يتحقق فيها الاستخلاف التوحيدي بمرتكزاته الثلاثة (العلم، الإيمان، العمل الصالح)، ومن ثم المنهج المناسب لإقامة الدين في الحياة بشروط الزمان والمكان.

ثانيا؛ إعادة ترتيب الأولويات العلمية والتعليمية والتربوية (التزكية) بما يحقق الإصلاحين المعرفي والتربوي، وربط المناهج الدراسية بالنظر الكوني القرآني كفلسفة للعلم بحيث تحقق المادة العلمية لدارسها مزيدا من الإيمان، وتعينه والمجتمع على العمران، ودعم المؤسسات التعليمية بالمراصد الكونية وبالمعدات والمختبرات العلمية المتقدمة في كافة مجالات العلوم الكونية، الطبيعية والاجتماعية، والتأكيد على أهمية الأبعاد التجريبية في البحوث العلمية، لا سيما فيما يسمى بالعلوم الشرعية المعيارية كعلم الفقه وعلم التزكية(التربية)، وبث ثقافة العلم الكوني التوحيدي في المجتمع، حتى نتحقق بالذي هو خير في النصف الثاني من قوله تعالى: (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(22))(الملك).

ثالثا؛ تهيئة الأمة الإسلامية، علما كونيا وإيمانا وإرادة، للتطلع إلى اللحاق بركب السابقين إلى الفضاء الكوني للقيام بواجب الاستخلاف التوحيدي في الأرض جميعا، ذلك أن الذين يصلون إلى أقطار السماوات والأرض قبل غيرهم سوف يتحكمون في من يلحق بهم. ليس هناك دين غير الإسلام الذي جاء به محمد، ﷺ ، يهدي البشرية للتي هي أقوم في حركتها الكونية المتسارعة، وليس هناك أمة غير الأمة الإسلامية تكون شاهدة على الناس وهم يعمرون الأرض جميعا من السماء الدنيا إلى السماء السابعة .

رابعا؛ إن العلوم العظيمة والتقنية المبهرة التي سوف يمتلكها من يستطيعون الوصول إلى أقطار السماوات والأرض، وكذلك الموارد الفضائية الهائلة التي سوف تكون تحت تصرفهم تجعلهم قادرين، من مكان بعيد، على فعل ما يشاؤون بمن أخلد إلى هذه الأرض التي نحن فيها الآن. ولما كان من يكنّون العداء للإسلام والمسلمين هم المبادرون الآن إلى الفضاء الكوني فإن مصائب عظيمة تنتظر الأمة الإسلامية إن هي ظلت مع القاعدين، ولن يرقب أعداؤها فيها إلّاً ولا ذمة، وما أمر "طائرات الدرون" الأمريكية منا ببعيد. وسوف تكون رسالتهم إلينا واضحة: (...إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ(83))(التوبة).

خامسا؛ لابد من إعادة النظر الجدّي في حقيقة علوم الدين بحيث تعود لجميع آيات القرآن الكريم حيويتها في التأسيس للعلم التوحيدي، المحقق للإيمان والعمران، في جميع امتداداته التخصصية التي تفرضها شروط الزمان والمكان، دون تحيز باسم الدين لتخصص دون آخر، إلا ما تقتضيه الضرورة الزمانية والمكانية. إن جميع العلوم الضرورية لإقامة الدين، بشروط الزمان والمكان، هي بالضرورة علوم دينية، ومن ثم فهي شرعية. إن آيات القرآن الكريم التي ظلت تلعب دورا مؤثرا في حياة الأمة عبر تاريخها هي فقط آيات الأحكام، وهي محدودة قياسا إلى جملة آيات القرآن الكريم، مما يعني أن الكتاب الذي أُحكمت آياته ثم فُصّلت هدى للناس معطّل عن أداء مهمته لأن أمة الإسلام اتخذته مهجورا.